معاقبة النفس عند المعصية بين المشروعية والابتداع

مما لا شك فيه أن الذي شرعه ربنا لنا عند معصية النفس هو التوبة والاستغفار وما يشتمل عليهما من نحو صلاة التوبة، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: "ما من رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له ثم قرأ هذه الآية:"والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون" [آل عمران:135]. أخرجه بعض أهل السنن. قال سفيان بن عيينة: التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم وكانت توبة بني إسرائيل القتل.

بيد أن بعض الناس يمكن أن تتقاصر همته عن فعل ذلك، فمثلا المقصر في الصلاة فريضة كانت أو نفلا لا يتصور أن ينهض لصلاة التوبة وما أوتي إلا بسبب تثاقله عن الصلاة، والاستغفار ربما لا يمنع المسيء من التمادي في معصيته بسبب أن شيطانه لا يخنس بالاستعاذة والاستغفار .

وفي ذلك يقول اين القيم : "القلب الخالي عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر، وأما القلب الذي فيه تلك الصفات [1] التي هي مركبه وموطنه [2] فيقع الذكر في حواشيه وجوانبه ولا يقوى على إخراج العدو منه، ومصداق ذلك تجده في الصلاة، فتأمل في الحال وانظر هل تخرج الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قلبك، وتفرغه كله لله تعالى بكليته، وتقيمه بين يدي ربه مقبلا بكليته عليه يصلي لله تعالى كأنه يراه، قد اجتمع همه كله على الله؟ وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا؟ والله المستعان. انتهى..

وربما سهل الذكر و الاستغفار على الإنسان فلا يرتدع عن الذنب، ولكنه إن جعل على نفسه عقوبة مالية تردعه عن المعصية ربما أوجعه نقصان ماله فاستقام، والنفوس في التربية أنواع ومقامات!!!!

وقد كان ابن وهب – رحمه الله – يقول: نذرت أني كلما اغتبت إنسانا أن أصوم يوما فأجهدني فكنت أغتاب وأصوم، فنويت أني كلما اغتبت إنسانا أن أتصدق بدرهم فمن حب الدراهم تركت الغيبة. في سير أعلام النبلاء (9/223-228)

ومما يمكن أن يستدل به على مشروعية معاقبة النفس عند المعصية وعلى تقصيرها، ما روى البخاري ومسلم في قصة توبة كعب بن مالك، قال: "فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

ومما يصلح دليلا في ذلك، ما جاء في تفسير قوله تعالى: "وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33). (ص: 30-33)

وذلك أن سليمان- عليه السلام- كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل، فشغله استعراض خيله عن الصلاة حتى ذهبت الشمس، فقال:" رُدُّوها عَلَيَّ" فردت فعقرها بالسيف، قربة لله وتوبة إليه.

[1]- يقصد الصفات السيئة.

[2]- يقصد أن هذه الصفات يأوي إليها الشيطان.